اتساق الجمل فى النص القرآنى

د . مصطفى عراقى حسن *

مقدمـــة

الهدف من هذا البحث محاولة الإجابة عن السؤال التالى :

هل أدرك علماؤنا من المفسرين ، والنحاة ، والبلاغيين مسألة وحدة النص القرآنى(١) ؟ وما أثر هذا الإدراك فى فهم النص القرآنى ، والوقوف على أسراره ؟

وقد آثرت أن تكون الإجابة من خلال البحث عن اتساق بين الجمل فى النص القرآنى ، بصفته ملمحا بارزا من ملامح الإعجاز ، وسمة من سمات البلاغة،

(*) مدرس بقسم النحو والصرف والعروض ، بكلية دار العلوم ، جامعة القاهرة .

(١) أشير هنا إلى عناية الدارسين قديما وحديثا بثلاثة اتجاهات للتفسير تنطلق جميعا من إدراك وحدة النص القرآنى . الأول : المناصبة بين الآيات والسور (البرهان للزركش ، والإتقان للسيوطى) والثانى : التفسير الموضوعى الذى يشمل تتبع موضوع واحد فى القرآن كله ، أو يقتصر على الوحدة الموضوعية فى سورة واحدة ، والثالث : التفسير الأدبى الذى يتناول الموضوع الواحد تناولا أسلوبيا (التفسير البيانى لعائشة عبد الرحمن) .

أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى " **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله**" (سورة الزمر ٢٣) .

إذ وصف كتابه بأنه متشابه ، والمراد بالمتشابه هنا : " ما أشبه بعضه بعضا فى اللفظ والمعنى من حيث البلاغة وحسن الترتيب " (١) .

ويقول الباقلانى : " ونظم القرآن فى مؤتلفه ومختلفه ، وفى فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه وفى كل نهج يسلكه وطريق يأخذ فيه ، وباب يتهجم عليه ، ووجه يؤمه ، على ما وصفه الله تعالى به لا يتفاوت " (٢) .

فدل بذلك على أن الاتساق سمة جلية من سمات القرآن الكريم .

وقد اتخذت النحو سبيلا إلى معرفة الاتساق فى النص القرآنى لأن هذه المعرفة متوقفة على العلم بوسائل الربط بين الجمل ، والفقرات ، يقول ابن العربى

---

(١) الصاوى : حاشيته على تفسير الجلالين ٣ : ٣٧٠

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ، مطبعة مصطفى الحلبى القاهرة (١٩٧٨ م) : ١٤ ، لكن الدكتور نصر أبو زيد يرى " أن هذا التأكيد لا يلبث أن يتبدد عند محاولة اكتشاف إعجاز آيات الاحكام ، استنادا إلى مفاهيم البديع ، والبلاغة ولذلك يتراجع الباقلانى عن تأكيده السابق " . (مفهوم النص : ١٩٩٠)

وإذا رجعت إلى إعجاز القرآن رأيت أن الباقلانى لم يتراجع ، بل وجدته يقول : " إنا نعتقد فى كل سورة ذكرناها ، أو أضربنا عن ذكرها اعتقادا واحدا فى الدلالة على الإعجاز ، والكفاية فى التمنع والبرهان ... وإن كنا نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر ، وفى بعض أدق وأغمض " . (إعجاز القرآن : ٦٢)

إن الإعجاز البلاغى متحقق فى آيات القرآن جميعا ، لكنه يظهر جليا أحيانا ويخفى على البعض حينا ، دون أن يعنى ذلك إنكاره أو التشكيك فيه .

فى (سراج المريدين) : " ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى ، علم عظيم " (١) .

يشير ابن العربى هنا إلى علم التناسب ، موضحا أنه يعتمد على الربط بين الآيات حتى تحصل بينها وحدة .

ويصرح العلوى بمصطلح الاتساق فى وصفه لبلاغة القرآن ، قائلا : " فإنه حاصل على طريقة واحدة فى البلاغة والفصاحة ، وحسن الانتظام ، وجودة الاتساق " (٢) .

فما المقصود بهذا المصطلح ؟

١- مفهوم الاتساق

يدل لفظ الاتساق فى اللغة على معانى الجمع والانضمام ؛ لأن " كل ما انضم فقد اتسق ، وفى القاموس المحيط : " اتسق : انتظم " (٣) .

وخصه العلماء بالأمور الحسنة كما جاء فى تفسير قوله تعالى : " **والقمر إذا اتسق** " يقول القرطبى : " أى تم واجتمع . ويقال : أمر فلان متسق أى مجتمع على الصلاح منتظم ، يقال : اتسق الشىء إذا تتابع " (٤) .

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة التراث ، القاهرة ١ : ٣٦

(٢) يحيى بن حمزة العلوى : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق الإعجاز - دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٨٢ م) ٣ : ٤٣٦

(٣) ابن منظور : لسان العرب ، والفيروزابادى : القاموس المحيط : مادة (و س ق)

(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن - كتاب الشعب ، القاهرة ٧٠٦٩

والمراد به هنا "تأليف الكلمات ، مترتبة المعانى ، متناسقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل ، لا تواليها فى النطق ، وضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق"(١) .

ويشمل اتساق الجمل تأليف الكلمات ، وبناء التراكيب ، وسرد الجمل فى أنساق مختارة ، ودلالات خاصة . يقول ابن يعقوب : " ونظم القرآن أسلوبه الخاص المقتضى لتناسب دلالة كلمه إفرادا وتركيبا " (٢) .

ويقول الشاعر فى صفة الشعر (٣) :

فيكون جزلا فى اتساق صنوفه ويكون سهلا فى اتفاق فنونه

وقد لا حظ العلماء معنى الضم فى تسمية القرآن بهذا الاسم ، يقول تعالى : **" إنا علينا جمعه وقرآنه "** .

يقول قتادة : " حفظه وتأليفه " . وفسره الطبرى بأنه : من قول القائل قرأت الشىء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض " (٤) .

وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن " فى الاتساق من اطراد النسق

---

(١) السعد التفتازانى : شرحه على تلخيص المفتاح ، المطبعة الخيرية (١٣٤٠ هـ) ١ : ١٧

(٢) ابن يعقوب : شرحه على تلخيص المفتاح ، المطبعة الخيرية (١٣٤٠ هـ) ١ : ١٧

(٣) ابن رشيق : العمدة ، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ٢ : ١١٥

(٤) الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر – دار المعارف ، القاهرة ط٢ (١٩٥٤ م) ١ : ٩٥

والإحكام والنظام ما يفوت لفظ الاجتماع فى تأويل المسألة ، ولعل الاجتماع منظور فيه إلى (الوسق) ؛ فكل شىء وسقته فقد جمعته ، ثم جاء الاتساق للإحكام وانتظام النسق واطراده " (١) .

من أجل هذا آثرت مصطلح الاتساق لبيان الارتباط بين جمل القرآن ، وشدة الاتصال بين أجزائه .

ويشير الأستاذ محمد الخطابى إلى قيمة دراسة الاتساق فى الدراسات اللغوية المعاصرة ، قائلا : " يحتل اتساق النص وانسجامه موقعا مركزيا فى الأبحاث والدراسات التى تندرج فى مجالات تحليل الخطاب ، ولسلنيات الخطاب ، ونحو النص ، حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفا ينتمى إلى هذه المجالات خاليا منهما ، أو من أحدهما ، أو من المفاهيم المرتبطة بهما كالترابط والتعالق وما شاكلهما " (٢) .

وهو يعرف اتساق النص بأنه " التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص ما ، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية الشكلية التى تصل بين العناصر المكونة لجزء من خطاب ، أو خطاب برمته ، ومن أجل ذلك يسلك المحلل الواصف طريقة خطية ، متدرجا من بداية الخطاب حتى نهايته مهتما أيضا بوسائل الربط المتنوعة كالعطف، والاستبدال ، والحذف ، والمقارنة ، والاستدراك ... وهلم جرا . كل ذلك من أجل البرهنة على ان النص يشكل كلا متآخذا " (٣) .

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ، دار المعارف (١٩٨٧ م) : ٣٥٢

(٢) محمد الخطابى : لسانيات الخطاب : ٥

(٣) السابق ١ : ١٠٦ وانظر :

Halliday and R. Hasan (1976) Cohesion in English . Longman . London .

وسوف أتتبع فيما يلى إشارات العلماء العرب والمسلمين إلى الاتساق ، من أجل معرفة مناهجهم فى معالجة هذه المسألة ، وتوظيفها فى فهم النص القرآنى .

٢- اتساق النص القرآنى لدى المفسرين

لاحظ المفسرون اتساق القرآن فى تقسيمه إلى آيات وسور : إذ يدل معنى (الآيات) على " القصص تتلو قصة قصة بفصول ووصول " (١) .

إن الاتساق يتحقق بالوصل ، بل إن : " من الفصل ما هو أحسن من الوصل " (٢) .

أما السورة فـ " كأنها قطعة من القرآن " ، لهذا شبهها العلماء بسور البناء ، أى القطعة منه أى منزلة بعد منزلة . ويحتمل ان تكون من السورة بمعنى المرتبة ؛ لأن الآيات مرتبة فى كل سورة ترتيبا مناسبا ؛ وفى ذلك حجة لمن تتبع الآيات بالمناسبات " (٣) .

والحكمة فى تقطيع القرآن سورا مع انه كلام واحد متصل ، أن " تكون كل سورة ، بل كل آية فنا مستقلا ، وقرآنا معتبرا " (٤) .

وبهذا تتوزع مستويات اتساق النص القرآنى على ما يلى :

١- مستوى النص القرآنى .

٢- مستوى السورة الواحدة ، أو الفقرة فيها .

---

(١) الطبرى : جامع البيان ١ : ١٠٦

(٢) ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق الدكتوران أحمد الحوفى ، وبدوى طبانه - نهضة مصر ، القاهرة ٣ : ١٣٩

(٣) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ١ : ٣٦

(٤) السابق

٣- مستوى الآية الواحدة .

من اجل هذا راعى المفسرون قيمة اتساق الكلام فى فهم القرآن الكريم ، فقرر الطبرى أنه إذا كان " للكلام مفهوم على اتساقه على كلام واحد ؛ فلا وجه لصرفه إلى كلامين " (١) .

إن الاتساق هو الأصل ، ولا يخرج عن الأصل إلا لغرض ، يقول الطبرى: " إلحاق معنى بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متسقة معانيه على سياق واحد ، إلا أن تأتى دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض ، فيعدل به عن معنى ما قبله " (٢) .

وللنظر فى النص بوصفه وحدة ثمار كثيرة أهمها تعرف المعنى الصحيح ، لأن النص يفسر بعضه بعضا ، وقد اعتمد المفسرون هذا المعنى حين قرروا أن "القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا فما أجمل فى مكان فإنه قد فسر فى موضوع آخر، وما اختصر فى مكان فقد بسط فى موضوع آخر " (٣) ، ولهذا كان " تقدير ما ظهر فى القرآن أولى فى بابه من كل تقدير " (٤) .

كذلك أفاد المفسرون من النظر فى سياق السورة الواحدة لاختيار الوجه

---

(١) الطبرى : جامع البيان ٢ : ٢٩١

(٢) السابق : ٨ : ٥٢٤ ، ٥٢٥

(٣) ابن تيمية : مقدمة فى أصول التفسير ، دار المطبعة السلفية ط٣ (١٩٧٧ م) : ٣٢

(٤) العز بن عبد السلام : الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز - نسخة مصورة عن المطبعة العامرة ، القاهرة (١٣١٣ هـ) : ٩

ويدل على ذلك - كما يقول ابن الشجرى - انه قد يذكر الشىء فى سورة فيجىء جوابه فى سورة أخرى ؛ لأن القرآن يجرى مجرى السورة الواحدة (أماليه ٢ : ١٤٢ ، ١٤٤ : ٥٢٤) .

الراجح فى تفسير جملة واردة فيها ، يقول ابن القيم : " وفى قوله تعالى : " **قال هذا صراط على مستقيم** " (سورة الحجرات : ٤١) قول ثالث هو قول الكسائى : " إنه على التهديد والوعيد ، نظير قوله : " **إن ربك لبمرصاد** " (سورة الفجر : ١٤) كما يقال : طريقك على ، وممرك على . لمن تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ، ولا معجز . والسياق يأبى هذا ، ولا يناسبه لمن تأمله . فإنه قاله مجيبا لأبليس الذى قال: " **لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** " فإنه لا سبيل إلى إغوائهم ، ولا طريق لى عليهم . وأما تشبيه الكسائى له بقوله : " **إن ربك لبمرصاد** " فلا يخفى الفرق بينهما سياقا ، ودلالة ؛ فتأمله " (١) .

يفرق ابن القيم بين الآيتين تفريقا سياقيا دلاليا ، فالآية الأولى من سورة الحجر وردت فى سياق الكلام على المخلصين الذين هم على صراط مستقيم ، يدل على ذلك قوله تعالى : " **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** " .

أما الآية فى سورة الفجر فوردت فى سياق الكلام عن عاقبة الطاغين فكان التهديد مناسا لهذا السياق .

بهذا ترى أن النظر فى سياق السورة مهمة من وسائل مهمة الترجيح بين الدلالات .

وقد أرسى المفسرون قانونا مبنيا على أساس من علم النحو ، يفسر تنوع أنساق ترابط الجمل فى النص ، يقول أبو حيان : " إذا كان الكلام بحيث لو لم يشرك لم يستقل ، فيؤتى بحرف التشريك ليدل على معناه ، أما إذا كان المعنى يدل على ذلك فالاحسن ترك الحرف إذا كان آخذ بعضه بعنق بعض ، ومرتب بعضه

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين – مطبعة السنة المحمدية (١٩٥٦ م) ١ : ١٦

من حيث المعنى على بعض ، ومما جاء ذلك فيه كثيرا محاورة موسى وفرعون فى سورة الشعراء " (١) .

الهدف تحقيق وحدة النص ، وينبغى أن يتحقق هذا الهدف ، ليتحقق الترابط قويا بين الجمل مرتبة ، مستقيمة المعنى .

٣- اتساق النص لدى النحاة

يتجلى إدراك النحاة لاتساق الجمل فى القرآن الكريم من خلال قول ابن السراج (٣١٦ هـ) : " إن مجاز القرآن كله مجاز سورة واحدة بعد ابتدائه ، وأن بعضه متصل ببعض " (٢) .

فإن هذا الاتصال إنما يتحقق من خلال الربط بين جمله حتى يصير كالسورة الواحدة ، ويدلل ابن الشجرى (٥٤٢ هـ) على هذه الفكرة بـ " أنه قد يذكر الشيء فى سورة فيجيء جوابه فى سورة أخرى ؛ لأن القرآن يجرى مجرى السورة الواحدة " (٣) .

ومن الواضح أن هذا الدليل يعتمد الوسائل النحوية الرابطة ، ويعبر الزمخشرى (٥٢٨ هـ) عن ترابط السورتين نحويا مستخدما مصطلح التضمين الذى

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط طبعة السلطان عبد الحفيظ ، القاهرة (١٣٢٨ هـ) ٢ : ٣٠١

(٢) ابن سراج : الأصول فى النحو ، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلى ، مؤسسة الرسالة – بيروت ط٣ – عام ١٩٨٨ م ١ : ٤٠١

(٣) ابن الشجرى : أماليه ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ط١ (١٩٩٢ م) ٢ : ١٤٢ ، ١٤٤ ، ٥٢٤

يقتبسه من علم العروض ، فيقول فى قوله تعالى " **لإيلاف قريش** " متعلق بما قبله أى : جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين فى الشعر : وهو ان يتعلق معنى البيت بالذى قبله تعلقا لا يصح إلا به " (١) .

بهذا يكون التضمين سمة من سمات ترابط أجزاء النص الأدبى ، لا يقتصر على الشعر . ومن أمثلة ذلك ارتباط سورة ق بالسورة قبلها ، والسورة بعدها ؛ على النحو التالى :

أ- ارتباطها بالسورة قبلها

اختتمت سورة الحجرات بقوله تعالى : " **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون** " (سورة الحجرات ١٧، ١٨) .

يقول أبو حيان : " إنه تعالى لما أخبر أن أولئك الذين قالوا آمنا لم يكن إيمانهم حقا ، وانتفاء إيمانهم دليل على إنكاره نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : " **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم** " .

فربط جملة من سورة ق بختام السورة التى سبقتها فى ترتيب المصحف . ربطا نحويا .

ب- ارتباطها بالسورة بعدها

جاء فى ختام سورة ق قوله تعالى : " **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** " ،

---

(١) الزمخشرى : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١٩٤٧ م) ٤ : ٨٠١

وقال فـى أول سـورة الذاريـات بعـد القسـم : " **إنمـا توعـدون لصـادق . وإن الديـن لواقع** " .

يشير إلى ان العلاقة هنا علاقة تعليل لما سبق فى سورة ق ، والمعنى فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ؛ لأن ما توعدون لصادق .

ويرى الألوسى أنه " لو ختمت سورة ق بذكر البعث واشتملت على ذكر الجزاء والجنة والنار وغير ذلك افتتحت الذاريات بالإقسام على أن ما وعدوا من ذلك لصادق ، وأن الجزاء لواقع ، وأنه قد ذكر فى ق إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وذكر فى الذاريات إهلاك بعضهم على سبيل التفصيل إلى غير ذلك مما يظهر للمتأمل " .

أما السهيلى (٥١٨ هـ) : فيستخدم مصطلح العطف النحوى فى بيان اتساق النص القرآنى ؛ فيقول : " إن القرآن كله كلام واحد كأنه معطوف بعضه على بعض " (١) .

وهو يشير بذلك إلى أهمية عطف الجمل فى تحقيق اتساق النص ، يقول ابن يعيش : " الغرض من عطف الجمل ربط بعضها ببعض واتصالها ، والإيذان بان المتكلم لم يرد قطع الجملة الثانية من الأولى ، والأخذ فى جملة أخرى ليست من الأولى فى شىء ، وذلك إذا كانت الجملة الثانية أجنبية من الأولى غير ملتبسة بها، وأريد اتصالها بها " (٢) .

---

(١) السهيلى: نتائج الفكر فى النحو ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام ط٢: ٢٦١

(٢) ابن يعيش : شرح المفصل ٣ : ٧٥ ، وانظر الدكتور مصطفى عراقى : المعانى النحوية للغة القص فى القرآن الكريم رسالة دكتوراه بدار العلوم (١٩٩٣ م) : ٣٢٢

يشرح ابن يعيش هنا الغرض من عطف الجمل موضحا الأساس النحوى الذى يقوم عليه مبدأ اتساقها فى النص الواحد .

وتتجلى عنايتهم بتحقيق هذا المبدأ من خلال دراستهم لباب الاشتغال ، يقول ابن الشجرى :

" فإن كانت الجملة المبدوء بها اسمية قوى الرفع لمشاكلة الثانية الأولى ، ومثله فى التنزيل : " **وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون** " (سورة الشعراء: ٢٢٣ ، ٢٢٤) ولو نصب الشعراء بتقدير (ويتبع الغاوون الشعراء) كان النصب ضعيفا لتخالف الكلامين " (١) .

حقق اختيار الرفع اتساق النص ومناسبة الجمل فى هذا النص ، فى حين يتحقق الاتساق باختيار النصب فى نص آخر ، كما فى قوله تعالى : " **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا** " (سورة الإسراء:١٢).

" كل " منصوبة على الأرجح ؛ بفعل محذوف جملة فعلية تلائم الجملة السابقة .

ويلاحظ ابن يعيش أن المشاكلة سمة من سمات كلام العرب ، فيقول : "والعرب تختار مطابقة الألفاظ ما لم تفسد عليهم المعانى ، فإذا جئت بجملة صدرتها

---

(١) ابن الشجرى : أماليه ٢ : ٨٥ ، ولهذه الظاهرة أسماء أخرى منها : المشابهة ، والمساواة والمماثلة ، والموازة ، يقول الكفوى : والمناسبة أعم من الجميع . (الكليات – مؤسسة الرسالة، ط١ (١٩٩٢ م) : ٨٤٣) .

بفعل ، ثم جئت بجملة أخرى معطوفة على الجملة الأولى وفيها فعل ، كان الاختيار تقدير الفعل فى الجملة الثانية ؛ إذ الغرض توافق الجمل وتطابقها لا تختلف" (١) .

فدل ذلك على أن توافق الجمل ، وتطابقها مع مراعاة صحة المعنى غرض من أغراض النحو ، يقول الرودانى : كما يترجح النصب لمشاكلة جملة سابقة ، يترجح لمشاكلة جملة لاحقة " (٢) .

وبهذا يتأمل النظر النحوى جمل النص ، ملاحظا ما بينها من علاقات نحوية رابطة ، تعينه على اختيار الوجه الراجح .

ومن أمثلة ذلك :

١- يقول تعالى : " **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** " (سورة يس : ٣٧ - ٣٩) .

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ٢ : ٣٢ ، ويستفاد من هذا أنهم يضحون بالمشاكلة - على أهميتها - من اجل تصحيح المعنى ، لأن المعنى أهم لديهم ، كما ترى فى هذا المثال : يقول كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبـــول

وما سعاد غداة اليوم إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

(الواو) هنا عاطفة للجملة الاسمية التى بعدها على الجملة الفعلية السابقة ، وهى : " بانت سعاد" ، وليست عاطفة على الجملة الاسمية : " قلبى اليوم متبول " ، رغم أن الجملة الاسمية أقرب ،وأنسب ، لأن هذه الجملة لا تشارك تلك فى التسبب عن البينونة . (شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام : ١٢) .

(٢) الصبان : حاشيته ٢ : ٧٩

" فرفع القمر ههنا ؛ لأن قبله " **وآيـة لهم الليل نسلخ منه النهار** " وهو مرفوع بالابتداء " (١) .

إن رفع الاسم المتقدم (القمر) على الابتداء ، يجعل الجملة اسمية فتكون بذلك متسقة مع الجملة السابقة " وآية لهم الليل " .

كما تتحقق المشاكلة مع الجملة الاسمية الكبرى : " والشمس تجرى لمستقر لها "

٢- وقال تعالى : " **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا .وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه .ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا**" (سورة الإسراء : ١٢ ، ١٣) .

" فنصب (كل) لأن قبله فعلا وهو " وجعلنا اليل " وأضمر له فعلا نصبه به ثم عطفها على الاولى لتشاكلهما فى الفعلية " (٢) .

يدلك هذا على ان النظر النحوى لا يقف عند حدود الجملة الواحدة ، وإنما يتأمل الجمل السابقة فى النص الواحد ، معنيا بالكشف عما بينها من مشاكلة .

إن المشاكلة هى الغرض الأصلى فى سرد الجمل ، ولكن قد يخرج عن الأصل لأداء غرض جديد ، يقول الصبان (٣) : " التخالف قبيح لكن محل ذلك ما لم يقتض الحال تخالفهما كقصد إفادة التجدد فى الفعلية ، والثبوت فى الاسمية ،

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ٢ : ٣٢

(٢) السابق

(٣) الصبان : حاشيته على شرح الأشمونى ٢ : ٧٩

كقوله تعالى : " **سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون** " (سورة الاعراف : ١٩٣) .

٤- اتساق النص القرآنى لدى البلاغيين

عنى البلاغيين ببحث الاتساق دليلا من دلائل إعجاز القرآن الكريم ، يقول العلوى : " فإنه حاصل على طريقة واحدة فى البلاغة والفصاحة ، وحين الانتظام ، وجودة الاتساق " (١) .

وهذا عبد القاهر ينظر فى كيفية سرد الجمل ، وتتابعها فى النص القرآنى فيقول : " ألا ترى إلى نحو قوله تعالى : " **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا اخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** " (هود : ٢٤) .

كيف كثرت الجمل فيه ؟ حتى إنك ترى فى هذه الآية عشر جمل إذا فصلت . وهى وأن كان قد دخل بعضها فى بعض حتى كأنها جملة واحدة ، فإن ذلك لا يمنع من ان تكون صور الجمل معنا حاصلة تشير إليها واحدة واحدة . ثم إن الشبه منتزع من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر ، حتى إنك لو حذفت منها جملة واحدة من أى موضع كان أخل ذلك بالمغزى من التشبيه " (٢) .

---

(١) العلوى : الطراز ٣ : ٤٣٦

(٢) عبد القاهر : أسرار البلاغة : ١٠٩

إن عبد القاهر يبين كيف تترابط الجمل ، ويتم التنسيق بينها على نحو مخصوص ، وكيف تتصل فى النص حتى تصير كالجملة الواحدة .

يقول عبد القاهر : " ولا ينبغى أن تعد الجمل فى هذا النحو بعد التشبيهات التى يضم بعضها إلى بعض والأعراض الكثيرة التى كل واحد منها منفرد بنفسه ، بل بعد جمل تنسق ثانية منها على أولة وثالثة على ثانية وهكذا ؛ فإن ما كان من هذا الجنس لم ترتب فيه الجمل ترتيبا مخصوصا حتى يجب أن تكون هذه سابقة وتلك تالية والثالثة بعدهما " (١) .

يشير عبد القاهر هنا إلى التفريق بين نوعين من النصوص :

الأول منها : ما تترابط فيه الجمل فى ترتيب مخصوص فلا يمكن الفصل بينها ولا حذف واحدة منها ؛ لأنها صارت كالجملة الواحدة ، وقد مثل لذلك بالآية الكريمة من سورة يونس ، فالجمل فى هذا النوع : " متداخلة كتداخل الجمل فى الآية ، وواجبا فيها أن يكون لها نسق مخصوص كالنسق فى الأشياء إذا رتبت ترتيبا مخصوصا كان لمجموعها صورة خاصة مقررة " (٢) .

فكان النظر فى نسق هذا النص ، عن طريق أسلوب تتابع الجمل فيه سبيلا إلى معرفة صورته الخاصة .

والثانى : ما تتجاوز فيه الجمل دون ترابط نصى بينها ومثل لذلك بمثال نثرى يمكنك التقديم والتأخير بين جمله ، وببيت شعرى يمكنك إعادة ترتيبه أيضا لولا الوزن والقافية فلم تجب المحافظة على نسقه لترابط جمله وإنما لأنه شعر .

---

(١) السابق : ١٠٩

(٢) السابق : ١١٠ ، وانظر : محمد الخطابى : لسانيات النص : ١٢٨

ثم يبين أن التشبيه التمثيلى لا يحصل إلا من جملة من الكلام ، أو جملتين أو أكثر وأن لكل جملة من هذه الجمل من هذه الجمل صورة جزئية مفردة ، ولكن الصورة المتكاملة لا تتحقق إلا من مجموع هذه الجمل التى تنسق وترتب فى نظام لأن هذه الجمل فى ترابطها وتداخلها كالجملة الواحدة . لا يجوز الفصل بينها ، ولا الحذف منها . وإلا أخل ذلك بمعنى النص وغرضه .

على أننا رأينا البلاغيين – وعبد القاهر منهم بخاصة – يتعرضون إلى الاتهام بأنهم " قصروا دور البلاغة على دراسة الجملة وأجزائها فحسب " (١) .

وقد تابع الدكتور شكرى عياد فكرة أمين الخولى ، ورتب عليها : " أن عبد القاهر حين لزم معانى هذه "الوحدة" اضطر أن يحصر حدود بحثه فى دائرة الجملة"(٢) .

كذلك يتهم الدكتور محمد حماسة عبد القاهر بأن : "تطبيقاته لهذه النظرية (النظم) لم تكن إلا على مستوى الجملة الواحدة بوصفها وحدة فنية مستقلة تحمل كل مقومات تمايزها واستقلالها " (٣) .

ولكن الناظر فى أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز يجد الكثير من تطبيقات

---

(١) أمين الخولى : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والادب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٩٥ م) : ٢٠٠

(٢) الدكتور شكرى عياد : كتاب أرسطو طاليس فى الشعر ، تحقيق ودراسة : الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣ م : ٢٧٤

(٣) الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف : اللغة وبناء الشعر ، مطبعة دار الصفوة (١٩٩٢ م) ٢٢:

عبد القاهر القرآنية يتجاوز فيها مستوى الجملة الواحدة ، كما لاحظت فى المثال السابق ، وكما فى قوله : " وهل تشك إذا فكرت فى قوله تعالى : " **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين** " (سورة هود : ٤٤) .

فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذى ترى ، وتسمع انك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يوجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض " (١) .

إن الارتباط هنا إنما هو ارتباط الجمل ، كما لاحظ العلوى فى باب أسماه : " فى تأليف الجمل وذكر بعضها عقيبه " ، يقول فيه : " تقديم بعض الجمل على بعض ليس خاليا عن فائدة وسر " (٢) .

وهو يشير بهذا إلى أن عوارض التركيب لا تتعلق ببناء الجملة فحسب ، بل ببناء النص .

إن البلاغة تعنى بالجملة ، لكنها لا تقف عندها ، ولا تقنع بالنظر فيها ، يقول الباقلانى (٤٠٣) : " وقد بينا فى نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة ، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف ، ثم الفواتح والخواتم ، والمبادىء والمثانى ، والطوالع والمقاطع ، والوسائط والفواصل " (٣) .

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز : ٤٥ ، وانظر : الدكتور مصطفى عراقى : المعانى النحوية لغة القصص فى القرآن الكريم .

(٢) يحيى بن حمزة العلوى : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣ : ٢٤١

(٣) الباقلانى : إعجاز القرآن : ٨٧ وقد قام بتطبيق هذه البلاغة النصية على بعض سور كسورة النمل (ص:٥٧) وسورة الإسراء (ص:٦٤) .

وهذه الوجوه لا تدرك إن اقتصر النظر البلاغى على الجملة الواحدة ، التى لا تمدك إلا ببلاغة منفردة .

ويعنى ابن الأثير (٦٣٧ هـ) ببحث أنماط اتساق الجمل على النحو التالى:

أولا : الاتساق بين جملتين

وله صور ، منها :

١- مقابلة الجملة للجملة . يقول : " اعلم أن الجملة إذا كانت مستقبلة قوبلت بمستقبلة ، وإن كانت ماضية ، وربما قوبلت الماضية بالمستقبلة ، والمستقبلة بالماضية إذا كانت إحداهما فى معنى الأخرى " (١) .

يتحقق الاتساق هنا من خلال النظر إلى الزمن وسيلة نحوية .

٢- المقابلة فى اللفظ والمعنى : كما فى قوله تعالى : " **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** " (سورة التوبة : ٨٢) .

٣- المقابلة بين العام والخاص : يقول تعالى " **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل** " لأن المصيبة أعم من السيئة .

٤- مقابلة الشىء بمثله : يقول تعالى " **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا** "

ترى فى السور السابقة كيف تتنوع المقابلة بين الجمل من خلال علاقات التضاد ، والخصوص والعموم ، والمماثلة .

ثانيا : الاتساق بين القراءات :

ويتحقق عن طريق ما يلى :

١- التخلص

لا يرى ابن الأثير بأسا فى وقوع التخلص فى القرآن الكريم ، لأن " حقيقة

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر : ٣ : ١٦٢

التخلص الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذى خرج منه ، والكلام الذى خرج إليه .

أما الغرض من التخلص فهو " جعل الكلام آخذا بعضه برقاب بعض ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد (١) .

ويمثل ابن الأثير للتخلص بسورة يوسف فيقول : " إنها قصة برأسها ، وهى مضمنة شرح حاله مع إخواته من أول أمره إلى آخره ، وفيها عدة تخلصات فى الخروج من معنى إلى معنى ، وكذلك إلى آخرها " .

ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : " **واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين** " إلى قوله " **فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين** " (الشعراء : ٦٩ - ١٠٢) .

يبين ابن الأثير مظاهر الاتساق فى هذا النص على النحو التالى :

١- حسن ترتيب الجمل فى الحوار .

٢- الالتفات بقوله " فإنهم عدو لى " من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم ، إذ تخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى .

٣- الخروج إلى الدعاء الذى يتسق مع ما سبق من الاعتراف بنعمة الله .

٤- إدراج ذكر البعث ضمن دعائه .

٥- توبيخ المشركين بسؤالهم عما كانوا يعبدون .

٦- ذكر ما يدفعون إليه عند ذلك من الندم والحسرة .

---

(١) السابق ٣ : ١٢٨

ثم يعقب قائلا : انظر أيها المتأمل إلى هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض ، مع احتوائه على ضروب من المعانى ، فيخلص من كل واحد منها إلى الأخر بلطيفة ملائمة ، حتى كأنه أفرغ فى قالب واحد " (١) .

يعبر ابن الأثير هنا عن شدة الارتباط بين الفقرات ، وأثر ذلك فى بيان وحدة النص .

٢- التضمين

يستخدم ابن الأثير مصطلح التضمين لبيان الربط بين الفقر فى السورة الواحدة ، فمن ذلك قوله تعالى : " **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين . أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** " (سورة الصافات : ٥١ - ٥٣) .

فهذه الفقر الثلاث مرتبط بعضها ببعض ؛ فلا تفهم كل واحدة منهن إلا بالتى تليها ، وهذا كالأبيات الشعرية فى ارتباط بعضها بعض (٢) .

ويبين الارتباط النحوى بين الآيات فيقول : وهكذا ورد قوله : " **أفرأيتم إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون** " (سورة الشعراء : ١٠٥ - ١٠٧) .

فهذه ثلاث آيات لا تفهم الأولى ولا الثانية إلا بالثالثة ؛ ألا ترى أن الأولى والثانية فى معرض استفهام يفتقر إلى جواب ، والجواب هو فى الثالثة .

---

(١) السابق ٣ : ١٣٠

(٢) السابق ٣ : ٢٠١

وفى هذا دليل على أهمية مراعاة اتساق الجمل فى فهم القرآن الكريم لدى البلاغيين ، واعتمادهم النحو سبيلا لبيان أنساق هذا الاتساق .

الخـــاتمة

يكشف البحث عن اتساق الجمل فى القرآن الكريم عن تضافر جهود المفسرين والنحاة والبلاغيين فى النظر إلى النص القرآنى ، مدركين اهمية هذا النظر فى الفهم الكلى للقرآن الكريم .

وقد أولوا اتساق الجمل فى القرآن الكريم عناية خاصة بصفته سمة جلية من سمات القرآن الكريم ، دل عليها القرآن ، وراعاها المفسرون ، والنحاة والبلاغيين ، كل بحسب طبيعة علمه ، والغرض منه .

فقد راعى المفسرون قيمة اتساق الكلام فى فهم القرآن الكريم ، بوصفه نصا واحدا يفسر بعضه بعضا .

كذلك أفاد المفسرون من النظر فى سياق السورة الواحدة لاختيار الوجه الراجح فى تفسير جملة واردة فيها .

كما كان توافق الجمل ، وتطابقها مع مراعاة صحة المعنى غرضا مهما من أغراض النحو ، يدل على ان النظر النحوى لا يقف عند حدود الجملة الواحدة ، لأن مجاله انتحاء سمت كلام العرب ، الذى يتحقق بتأمل الجمل السابقة ، واللاحقة فى النص الواحد ، من خلال أبواب النحو .

وقد تبين أن باب الاشتغال مجال خصب تتجلى فيه عناية النحاة باتساق الجمل فى النص . لهذا أختلف مع المطالبين بحذفه من الدرس النحوى ؛ فهو يمثل قيمة نصية بارزة .

ولم يكن اعتماد عبد القاهر النحو فى بناء نظريته الشهيرة (النظم) عقبة فى تحليل النص القرآنى بل كان سبيلا هاديا إلى النظر فى أساليب سرد الجمل واتساقها.

كذلك لم تحصر البلاغة جهودها فى دراسة الجملة وعناصرها ، بل امتد نظرها إلى اكتشاف انماط اتساق الجمل على المستويين النظرى والتطبيقى ؛ لتامل الاتساق بصفته ملمحا واضحا من ملامح أسلوب القرآن الكريم .

المصادر والمراجع

ابن الأثير : (ضياء الدين ابن الأثير) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق الدكتور أحمد الحوفى ، وبدوى طبانة – نهضة مصر ، القاهرة .

الباقلانى : (القاضى أبو بكر الباقلانى) : إعجاز القرآن ، مطبعة مصطفى الحلبى القاهرة (١٩٧٨ م) .

التفتازانى : (السعد التفتازانى) : شرحه على تلخيص المفتاح ، المطبعة الخيرية (١٣٤٠ هـ) .

ابن تيمية : (أحمد عبد الحليم) : مقدمة فى أصول التفسير ، دار المطبعة السلفية ، ط٣ (١٩٧٧م) .

الجرجانى : عبد القاهر : أسرار البلاغة ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، دار المدنى، بجدة ، ط١ (١٩٩١م) .

– دلائل الإعجاز ، تحقيق الشيخ محمود شاكر ، الخانجى ، ط١ (١٩٨٤م) .

حماسة : الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف : اللغة وبناء الشعر ، مطبعة دار الصفوة (١٩٩٢م) .
أبو حيان : (أثير الدين محمد بن يوسف) : (البحر المحيط ، نسخة مصورة عن طبعة السلطان عبد الحفيظ ، القاهرة (١٣٢٨هـ) .
الخطابى : الأستاذ محمد الخطابى : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب – الدار البيضاء ، ط١ (١٩٩١م) .
الخولى : الأستاذ أمين الخولى : مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٩٥م) .
الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة التراث ، القاهرة .
الزمخشرى : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، تصحيح الأستاذ مصطفى حسين أحمد (١٩٤٧م) .
الدكتور نصر أبو زيد : مفهوم النص ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ (١٩٩٠م) .
ابن سراج : (أبو بكر محمد بن سرى) : الأصول فى النحو ، تحقيق الدكتور عبد المحسن الفتلى ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط٣ (١٩٨٨م) .
السهيلى : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) نتائج الفكر فى النحو ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا ، دار الاعتصام – القاهرة ، ط٢ (١٩٧٨م) .
ابن الشجرى : أماليه ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ط١ (١٩٩٢م) .
الصاوى : (أحمد بن محمد) حاشيته على تفسير الجلالين ، مكتبة المشهد الحسينى القاهرة (١٣٥٨م) .
الصبان : حاشيته على شرح الأشمونى ، دار إحياء الكتاب العربية – القاهرة .
الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير) : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر – دار المعارف ، القاهرة ط٢ (١٩٥٤م) .

عائشة : الدكتورة عائشة عبد الرحمن : التفسير البيانى للقرآن الكريم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ (١٩٦٨م) .

العز ابن عبد السلام : الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز – نسخة مصورة عن المطبعة العامرة ، القاهرة (١٣١٣هـ) .

العلوى : (يحيى حمزة) : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ، وعلوم حقائق الإعجاز – دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٨٢م) .

عياد : الدكتور شكرى عياد : كتاب أرسطوطاليس فى الشعر ، ودراسة : الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (١٩٩٣م) .

القرطبى : (أبو عبد الله محمد بن أحمد) : الجامع لأحكام القرآن – كتاب الشعب، القاهرة .

ابن قيم الجوزية : (محمد بن عبد الله) مدارج السالكين – مطبعة السنة المحمدية (١٩٥٦م) .

الكفوى : (أبو البقاء أيوب بن موسى) : الكليات ، مؤسسة الرسالة ، ط١ (١٩٩٢م) .

ابن يعقوب المغربى : شرحه على تلخيص المفتاح ، المطبعة الخيرية (١٣٤٠هـ).

ابن يعيش : (أبو البقاء موفق الدين) شرحه المفصل ، نسخة مصورة عن طبعة إدارة الطباعة المنيرية مصر .